بين الشك والايمان

الشاعر الايطالى «ليو پاردى»

Léopardi

١٧٩٨ — ١٨٣٧

للأستاذ خليل هنداوى

« أيتها الشريعة الجميلة ! أنت ستعيشين طويلا معصومة من كل خطأ ، واذا هاجمنا الضلال نعوج اليك ونجد الحقيقة تحت ردائك ، ويدك وحدها تقودنا الى شاطىء السلام »

« ليوپاردى »

— ١ —

فى نفس « ليوپاردى » سكن الألم الممض والشك العنيف متجاورين . فجعلا منه — فى العمر الذى يبسم فيه كل شىء — شاعراً يحمل للناس مقاطع الأحزان ، ونفثات الأشجان .

قضى أيامه الأولى يساوره الداء من ناحية ، والدرس والاعتزال ينهكان قواه من ناحية ثانية ، على أن الدرس برغم متاعبه كان ينفخ فيه روح النشاط فيهب ، ويحيى أهواءه النائمة فتحيا .

كان لوالده الكونت (مونالدو) شغف بالأدب ، يعوج الى مجالسه وندواته ، وقد بعثه شغفه هذا على أن يغرس فى ولده هذه الروح ، وأن يسهل له ادراكه . فكان أدبه الأول أدب إيمان وتقوى ، يتعصب لهذا الأدب ، ويحله من صدره أسمى مكان ، ويحسب من لا يؤمن به جاهلاً ، وهو القائل فى ساعات شكه وجموده « ايتها الشريعة ، انك ستعيشين طويلاً معصومة من كل خطأ ، واذا هاجمنا الضلال نعوج اليك ، ونجد الحقيقة تحت ردائك ، ويفر الضلال فرار الذئب من الراعى ، ويدك وحدها تقودنا إلى السلام »

— ٢ —

كان الدافع الأول الى شك « ليوپاردى » هو سأمه من كل شىء فى بلده ، قال فى إحدى رسائله [لا تحدثونى عن «ريكاناتى» انى سأحب وطنى عند ما أغدو بعيداً عنه ، ماذا فى ريكاناتى ؟ هل تنتظرون ما أستطيع صنعه هنا ؟ فالكل يجهلونني ، وأنا مؤثر الحياة فى هذا الموطن الذى لا تعرفونه بدون معجم جغرافى ، مستخف بكل شىء . الآن صنع الآله الوجود جميلاً ، والناس يصفون العظائم فى كل الأنحاء ، وهنالك كثيرون من الرجال يعدون بلهاء لأنهم جربوا أن يروا وأن يعرفوا ! الأرض ملأى بالعجائب]

وهكذا قضى أيامه الأولى مغترباً عن أبيه الذى دعاه مراراً وتكراراً الى العودة ، وهو يأبى ويصر على البعد اصراراً . كتب له أبوه ، « وما هى الحاجة الماسة التى تدعوك إلى هجرة دارك وأهلك إلى دار لا تتمتع فيها بمثل عطف ورضاى ؟ » ولكن ليوپاردى كان يهمل كثيراً هذه الأسئلة ، واذا أجاب أجاب بنفس ناقمة غاضبة ثائرة ، وكتب إلى أحد أصدقائه « لأسهل عليك أن تحرك الجبل من أن تدفعه (والده) الى صنع شىء من أجلى » ثم يقول : « على أننى اخترت هذه المرحلة ؛ فلا آخذ منه شيئاً ، ولا أطلب شيئاً » وهكذا يغلب الكبرياء على ليوپاردى ويصبح شقاؤه شقاء جباراً .

أوى ليوپاردى إلى الدرس يجد فيه لذته النفسية ، ولكن هل كان الدرس كله راحته من عنائه ، وهناءه فى شقائه ؟ كتب فى أحد كتبه يعبر عما يجد فى ساعة الدرس :

[إن سبب تعسى هو عقلى ، اننى أظن أنكم تعرفون ، ولكنى أثق بأنكم تجهلون كيف يقتل العقل صاحبه الذى يحاول أن يفكر على غير ما يفكر به الآخرون ، عند ما لا يكون لهذا الصاحب من لهو غير لهو الدرس . . أما العقل فقد أعطانى ويعطينى أمثال هؤلاء الشهداء ، وبهذا وحده يفرض سلطته على ويكون سبب أذاتى . وسوف يقتلنى اذا لم أبدل خطتى ! ألا إن العزلة ما خلقت لمن يحترقون بأنفاسهم ويذوبون بأنفسهم]

بلى ! ما كان أصدق ليوپاردى فى كلمته الأخيرة ! لأنه كان معبراً عن حالة نفسية هى فيه . فقد تسرب اليه الداء حتى أنهك قواه فشح ناظراه وساءت صحته وركبته العلة إثر العلة . ووقر على

ظهره عبث الحياة فقال [إننى ناضج للموت] . ولكن الموت كان يرى هذه الثمرة غير ناضجة ، فتركها عشرين عاماً تنضج خلالها وتحمل من آلام الحياة ماينوء بالجبابرة حمله ، تائهاً ضالاً فى مسارب الشك ، مستجلياً الحقيقة كما استجلاها من قبله ، طالباً ما تعده من وصل ، ووعدها بالوصل علالة .

أما نظرته الحادة وصوته المرنان وتألق نفسه وكل تلك الملامح القوية التى مثلها — سانت بوف — قد تغيرت فى أخريات أيامه وانما غيرهـا وقر الهم لا وقر الهرم ، واذا بليوپاردى كما يصفه (رانيرى) صديقه الوفى « ذو قامة مقوسة ، ولون أبيض مشرب بصفرة ، وجبهة مربعة عريضة ، وعينين زرقاوين ذابلتين ، وأنف دقيق ، ولهجة مبهمة جافة ، وبسمة ترافقها العذوبة والشقاء »

وهو يكتب عن نفسه :

[وأخيراً أتعبتنى تلك الأعوام التى قضيتها فى الدرس وأودت بجسدى ، حتى لايرجى لى شفاء غير الموت . وهكذا حطمت رجائى لأفهم أن الطرب لايلائم قلبى . واذ ذاك وجب على أن أرتدى ثياب الحداد وأن أتخذ التشاؤم رفيقاً لى لايمكن فصله عنى إلى الأبد ، نظرتُ فألفيت أن حياتى لايمكن أن تكون إلا تعسة ، ولكن هذا لم يبعثنى على اليأس ، فحبذا لو أن قواى تحملها بدون خوف وتحولها إلى شىء مفيد بعض الشىء]

وهكذا نستطيع أن ندرك أن أهم العوامل التى تألبت على هذا القلب فبدلت ايمانه شكاً معذباً إنما هى عوامل جسدية ونفسية تضافرت على نضاله ، وما فتئت تلح عليه وتنال منه ، حتى تركته لا يهديه الا شك ، ولا يقنعه الا جحود .

— ٣ —

فى هذه العزلة الموحشة التى اختارها لنفسه ارتبط مع الأديب الايطالى (پيانرو جيورداتى) بصلات مودة متينة ، وكان نجم هذا الأديب متألقاً فى سماء بلاده ، وهو ممن طرح القديم وأعلن شكه فيه ، وراقت له المذاهب الجديدة فأخذ بها ، فتمنى لو يرى ليوپاردى بعد أن سمع عنه الشىء الكثير ، فقصده فى عزلته فمال اليه وأعجب به وكتب عنه « اذا كان دانتى نجمة صبح فى سماء إيطاليا ، فان ليوپاردى هو نجمة مسائها »

لليوپاردى صفحة مؤثرة كتبها فى ليلة تحت أضواء القمر والنجوم المشعة ، ذاهبة نفسه فى الليل العميق كل مذهب :

[وفى ذلك المساء كانت نافذتى مفتوحة ، وناظرى يتمتع فى هذا الصفاء السماوى وشعاع القمر المتهادى . أتروّح نسيما عليلاً ، وأصغى إلى عواء الكلاب المتناوحة فى مواطن قصية عنى . فخيل الى أن صوراً ترقى إلى نفسى وأن قلبى يتسلط عليه قلق غريب ، فهتفت كمن أصابه مس ، طالباً رحمة الطبيعة التى خيل الى أنها تسمعنى . فى هذه اللحظة ألقيتُ أنظارى على ماضى ، فتجمدت من الخشية اعضائى ، وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن الناس أن يتحملوا الحياة بدون أوهام ولا أفراح ولا عواطف ، بدون خيال ولاهيام ، وبدون ما كان يملأ وجودى قبل عام ، ويجعلنى سعيداً برغم مخاوفى ، أما اليوم فاننى يابس كالقصبة ، لا عاطفة تتمشى فى حنايا نفسى البائسة ، وقوة الحب الخالد المطلقة قد ماتت وهلكت فى العمر الذى أنا فيه .]

كم مرة ذكر ليوپاردى هذه الليلة العنيفة ! وكم مرة تمثلت له هذه الليلة وهو ينظر فى المروج الفضية الهادئة يغمرها نور القمر وهو ينجلى وراء (الابينين ، وقمم الألب الشامخة) أو يتهادى على حضن البحر اللانهائى ، وسائق العجلة يردد أغنيته الحزينة ، مودعا آخر شعاع النهار » ثم يردد الشاعر : [وهكذا يغادر الشباب الحياة ويتركها تخمد رويداً رويداً ، الاوهام الجميلة تتطاير مع الآمال التى كانت مساعدة للانسان ، ولكن أنتن أيتها الروابى التى ينحدر عنها النور ، أنتن لن يغشاكن الظلام طويلاً . . . ولكن حياة الانسان بعد فرار الشباب لن يلونها شىء ، وستظل عريية حتى النهاية . . . والقبر وحده هو الذى يضع حداً لليل عمرنا !]

وفى عام ١٨١٨ نظف الشاعر رأسه من كل شىء . طلق الايمان وودع الاوهام ، فبقى وحده وسط خرائب جسده وروحه ازاء عالم فارغ وتحت سماء من نحاس ، ومنذ ذلك العهد لم يتغن الشاعر إلا بأنشودة الشك التى رافقته حتى ودّع الحياة

— ٤ —

وأخيراً نزع عنه الشك العابس كل ايمان بالله والخلود والعناية ، فتلاشى منه كل شىء وانصرف عنه كل شىء ، فلا آله عنده غير

الطبيعة ، تلك القوة العمياء التى لا تُدرك ، يسألها عن سر الاشياء فتجيبه « وأنا طائعة للمقادير ، أما أسباب الاشياء فهى ألغاز ، لا أنا ولا أنت نستطيع ادراكها ، فالأجدر ببنى الانسان أن يصرفوا عيونهم عن هذه الألغاز التى تُقلقهم ، فان حلّها كلما خُيّل الينا انه صار قريباً زاد عنا بعداً »

لننظر ما هو الايمان الجديد الذى اعتنقه الشاعر فى بعض مقطوعاته (مومياء تُبعث) بعثاً مقيداً بلحظة زمنية ، يسألها فيها « كيف ماتوا وماذا وراء الموت » ؟ ولكنها تجيب « اسكت ! لم يحن وقت الجواب . . . » وهكذا تكر هذه اللحظة ، وتعود المومياء الى رقادها الأبدى .

وهنالك مقطوعة صغيرة تدور حول رجل (ايزلاندى) فرّ فى الأرض على وجهه من الطبيعة ، ولكنه تلاقى معها فى وسط الصحراء ، فألح عليها بأسئلة كثيرة منها هذا التأنيب :

[لماذا قذفت بى فى هذا العالم دون استشارتى ، ولماذا بعد ايجادك لى لم تشغلى نفسك فىّ ؟ فما هى غايتك ؟ وماعسى تبتغين ؟ وماذا تريدين ؟ هل أنت لئيمة أم عاجزة ؟]

فأجابته الطبيعة : بأن ليس لها الا سأم واحد وواجب واحد أن تُدير دولاب العالم دورة واحدة يناجى فيها الموت الحياة ، والحياة الموت . وإذ ذاك سألها الرجل «ومن عسى يبتهج بحياة هذا العالم الذى لا يبقى ولا يدوم إلا بموت كل الاجزاء التى تؤلف عناصره ؟ ولكن الطبيعة لم تجشم نفسها عناء الجواب . . . وإذ ذاك انقض أسدان جائعان عليه فالتهماه فهوى هيكله على التراب منتظراً أن يسقط كلاهما بدورهما على رمال الصحراء .

السكوت هو الجواب البليغ على هذه الأحاجى والاسرار ، لأن المستقصى عنها لن يرى إلا جداراً يعثر به ويدفعه الى الوراء ، وإذا سار فلن يسير إلا فى صحراء لا يجد منها مخرجاً .

لم يختر ليوپاردى شيئاً من حياة المستقبل ولا الحاضر ، ولم ينظر الى مستقبل الانسانية ، ولم يجرب أن يقف هواه على شىء فى الحياة ، واذ أراد أن يمجد وطنه فلن يرى شيئاً جديراً بالتمجيد إلا ذلك الماضى ، أما الغد فهو لا يؤمن به

[أيها الأسلاف العظماء ، ألا تزالون تصونون لديكم شيئاً من الرجاء فينا ؟ ألم نهلك نحن جميعاً ؟ اننى محطم لا أملك أية قدرة أجابه بها الشقاء ، أما المستقبل فهوجهم فى عينى ، والذى أتبينه هو الذى يربى الأمل حلماً أو جنوناً]

لهجته — أينما صعدت — مبطنة بالكآبة العميقة التى لا يخفف منها مجد ولا علاء . يُسألُ عن الرجل العظيم فيقول « هو اسم سرعان مايصبح كاللاشىء . ان فكرة الجميل تتبدل دائماً مع الزمن . فالمسائل العلمية سرعان مايتفوق عليها غيرها وتصبح نسياً منسياً ، وإن أدنى رجل رياضى منا يعرف أكثر مما يعرف (غاليلوونيوتن) فالمجد ماهو إلا خيال ، والبراعة التى تكون مكافأة للمجد ليست إلا حاضراً مشؤوماً لمن يتقبلها » ثم يتكلم عن دانتى ويقول . « وعلى هذه الأرض القبيحة لم يؤثر إلا الجحيم ، وأى منزل فى الحقيقة لا يفضل على منازلنا الأرضية ، ان الشقاء الذى يؤلمنا هو أقل ثقلاً وأقل شراً من السأم الذى يخنقنا . ألا أيها السعيد ، أنت الذى حياتك فى بكائك » وينظر ليوپاردى الى المستقبل نظرة سوداء ويعتقد أن الأجيال تسفل ولا ترتقى ، ويسخر من المتأملين فى تسامى الأحفاد

هنالك راع يخطر على قمم جبال (حملايا) متكئاً على عصاه يطيل التأمل فى السكون المحيط به ، وينظر الى القمر الهائم مثله فى السماء فيسأله : [قل لى أيها القمر ! ما قيمة حياة الراعى ، وما قيمة حياتك أنت ؟ بل ماقيمة حجى الفقير وسُراك الأبدى ؟ أنت أيها المسافر المنعزل الخالد والملك المفكر ، ربما تفهم أنت حياتنا وآلامنا وتنهداتنا ، وربما تفهم الموت والصفرة السامية ، وسفر الأرض ووداع الصداقات الجميلة . انك بلا شك تفهم أسرار كل هذه الاشياء ، ولكنى لا أفهم ولا أعرف إلا شيئاً واحداً . ليأخذ البعض من هذه الحياة خير ما فيها ، يستنقذونه من ثوراتها الهوجاء ومن كائناتها الضئيلة . قد يمكن لهم ذلك . ولكن الحياة هى شر من اجلى]

وهل فى هذه القطعة إلا اليأس من الحياة والكفر بها فى شعر جميل ما ؟

« يتبع »

خليل هنداوى